الشعب (البلد) الواحد في بعض الجوانب، فإنهم غالبًا ما يبدون تماثلات ملحوظة فيما بينهم، ويمكن تفسير هذه التشابهات بعوامل مشتركة، كتشابه الوراثة والعِرْق، والتعليم.

يمكن تقديم أمثلة عن بعض الفلاسفة من بلدان وأزمنة معيّنة متأثرين بشكل خاص بما يسمونه **بالعمق،** فبمجرد أن يبدو لهم مفهوم ما مُوحيًا، وبمجرد أن يُهيئهم ويحفزهم لأحلام اليقظة بإثارة اهتماماتهم، فإنه يبعث في أرواحهم ألحان مُبهجة كما قد يُثير في أجسادهم رعشة وإحساسًا بالألم، فيثملون ويغوصون، ولا يُبالون كثيرًا بغموض الصيغ، ولا حتى بتضارب الملاحظات ولا بضعف الأدلة المستقاة، وكما يذهب "بليز باسكال" في قوله: إنّ «للقلب أسباب يجهلها العقل» فقد يُفتَن بعضهم بالجمالِ في المقامِ الأول.

وبروعةِ مبناه، وسحره الظاهر ومدىَ بلاغتِهِ فهذا ما يُبهجُهم، وهؤلاء لا يُريدونَ البراهين فبالكاد يسعون

إليها هذا إن قدّموها فهم لا يُدقّقون فيها إذ ما اختبروا وفحصوا أعمالَ الآخرين.

وفي المقابل من ذلك، فهناك من هم من ذوي العقول العلمية بامتياز؛ حيث لا يقبلون أي شيء لا يكون بديهيًا، أو مُثبتًا مسبقًا بمبادئ سليمة، أو مُثبتًا بعديًا بأكثر الطرق التجريبية صرامة ودقّة.

فبالنسبة إليهم أنه ما لا يُظهر هذه الخصائص (المبادئ السليمة والتجربة والصرامة)، باطل ولاغٍ، وعندما لا يجدون دليلًا ولا برهانًا قطعيًّا عليه، فيُفضلون الاعتراف بجهلهم على المخاطرة بقضايا لا يُؤيدها إلاّ طابعها الإيحائي أو الجمالي، هؤلاء الفلاسفة لا يترددون في قول "**لا أعرف**" أو في تقديم تصوراتهم كمعتقدات فقط.

وعليه، وجب أن نُشيد بهم؛ فمن سمات الفلاسفة الفرنسيين أنهم جميعًا تقريبًا ينتمون إلى الفئة الثالثة من

هذه الفئات، ومن دون أدنى شك فلطالما أحبوا كلّ ما هو إيحائي وجميل، غير أنّ أكثرهم تأثيرًا من كان تفكيرهم كعلماء، لا كصانعي صيغ غامضة أو كفنانين ومبدعين عابرين.

ولعلّ السؤال الذي يُطرح علينا: ما هي السمات والخصائص التي يتميّز بها معظم الفلاسفة الفرنسيين؟

ومن دون شك **فالإجابة** على ذلك يتعلق بأن اهتمامهم موزع كما يلي: الوضوح واليقين، والترتيب.

أوّلاً– الوُضوح:

يُلاحَظ على الفلاسفة الفرنسيين عدّة انتقادات، غير أنهم يشتركون في صفة واحدة عظيمة، حيث ما إن يبلغوا مستوى من الثقافة ويكتسبوا بعض الخبرات، حتى ينقسموا إلى **تيارات نقدية** بارزة لدرجة المبالغة في كثير من الأحيان، ونادراً ما ينخدعون طويلاً بالصيّغ الفارغة، ويكتفون بكلمات دون وعي منهم.

ولو عدنا إلى "رينيه ديكارت" فإننا نجده قد جعل الوضوح وتمييز الأفكار ونقدها معيارًا للحقيقة، لقد علّمنا "ميشال دي مونتان" و"بليز باسكال" و"فولتير" أن نكون ساخرين عند قراءة كلّ كلام فارغ أيّ؛ حينما يُعرض علينا ذلك الهراء البسيط الذي يعرف قصده الكاتب وحده، لكنه يفشل في توضيحه للآخرين، وهو ما يُسمى بـ"بالهراء" المزدوج، حيث لا يعرف الكاتب ما يريد قوله، فيُكدس الكلمات كما لو كان يفهم ما يقوله.

وخوفا من الغموض، أدى هذا الرهاب بالفلاسفة إلى اتهام بعضهم بعضًا بانعدام العمق، لكن حتى من اتهموا الآخرين بذلك، ظنوا أنفسهم عميقين، إلا أن الواقع أثبت أن عقولهم كانت مغطاة ومغيّبة برائحة النبيذ، أو التبغ، أو حتى الأفيون الذي يتعاطونه، ولم يكونوا عميقين.

ثانيا– اليقين:

لعلّ قاعدة "كونفوشيوس" القائلة بأن: "المعرفة الحقيقية هي: أن تعرف أنك تعرف ما تعرف، وأنك لا تعرف ما لا تعرف"، قاعدة صالحة لكل زمان ومكان، ولا يمكن اعتبارها قاعدة عفا عليها الزمن، إذ أن الخطأ أن تعتقد بأنك على حق، فلا وجود لخطإ ناتج عن الجهل، لأن من عرف كل شيء لن يخطئ أبدًا.

ولكن لا يُفسر الخطأ حصرا بالجهل، إذ أن الجاهل الذي يعرف أنه جاهل يحرص على عدم تأكيد أي شيء بموضوعية؛ وبالتالي يتجنب الوقوع في الخطأ.

أما المخطئ فهو من يعتقد أنه يعرف ما لا يعرف، أو ما يحوزه مجرد اعتقاد فقط، لكنه يعمد على تأكيد ذلك كما لو كان يعرف بالفعل.

وعليه، فالتمييز بين العلم الحق والجهل، سواء أكان حتميًّا لا مفر منه، أم نسبيًا هو في واقع الأمر عبارة عن اعتقاد بسيط والذي سيكون السبيل الحقيقي

لتجنب الخطإ، وقد عرف الفلاسفة الفرنسيون هذه القاعدة منذ أمد.

واستخدمها كثيرون ببراعة وبشكل دقيق، وحاولوا أن تستند القضايا التي طرحوها على أدلة قاطعة، وعندما تفطنوا إلى أن الأمر مستحيل، اعترفوا وبدون خجل، وأطلقوا على أنفسهم اسم "الفلاسفة الجاهلون" وقد دوّنوا هذه الاعتقادات على شكل اعترافات.

ثالثًا–الترتيب:

لقد آمن الفلاسفة الفرنسيون بالمبدإ القائل أنه لا يمكن رؤية الكل بوضوح إلاّ بترتيب عناصره، فلا يمكن أن توجد جملة من المعارف ما لم تترتب فيها المبادئ كمبادئ، والنتائج كنتائج، وما لم تتكوّن وتتشكل الأجزاء منطقيًا ووفقا لبعضها بعضًا ومُرتَّبة على الأقل بترتيب يُسهِّل الرجوع إليها عند الحاجة.

لقد كان الشغل الشاغل للفلاسفة الفرنسيين هو العثور على طريقة للتفكير بوضوح، وإثبات المواقف بقوّة وصرامة، وعرضها بشكل مباشر ومرتب لا ريب فيه، مع ما تحمله من دلالات يقينية، وبالرُّغم من ذلك، لم يكن هذا كافيًا لكي يتفقوا ويجتمعوا على رأي جميعًا، أفلا يدعونا هذا إلى التعجب؟

لنتذكر ما قاله "باسكال": «تبدو الأشياء صادقة أو كاذبة بحسب المنظور الذي ننظر منها إليه»، وما يلفت انتباهنا إلى أحد المنظورين دون الآخر هو ما يكون سببًا في توجهنا الفكري وشخصيتنا، والتي تكون نتيجة أصلية وفريدة لعامل الوراثة المتباينة التي نشأنا منها وللتأثيرات الجسدية والأخلاقية المتعددة التي تعرضنا لها.

فالتفكير الجيد حول هذا الثلاثي؛ "الوضوح، واليقين، والترتيب"، هو في الواقع شرط ضروري لتوافق العقول والأرواح، لكن هذا الشرط الضروري ليس شرطًا كافيًا، فمهما كانت الإرادات حسنة، ومهما كانت

النوايا صادقة، فإن الإجماع ليس سهلاً في القضايا الخِلافية، وخاصةً عندما تكون مرتبطة بتداعياتها الدينية والأخلاقية والسياسية، وعرضة لإثارة المشاعر، وهذا ما سيكشفه لنا تطور الفكر الفرنسيّ، حيث سنميز فيه بين فترتين.

الفصل الأوّل: الفلسفة الفرنسية من المدرسية (السكولائية) إلى الثورة

يمكن تمييز الفترة الأولى من هاتين الفترتين: في اللّحظة التي تمت فيها مناقشات طويلة ودقيقة بين دعاة المذهب الواقعي: مثل "غيوم دي شامبو"، ودعاة المذهب الإسمي من أمثال: "روسيلين"، والمذهب التصوري مثل: "بيار أبيلار"، وقد فرض هؤلاء الفلاسفة المسيحيون والمدرسيون موسوعتهم الضخمة، والتي سيعمد القديس "توما الأكويني" على تلخيصها؛ وستستكمل رواجها إلى جانب موسوعة أخرى، والتي ضمت جملة العلوم والفنون والحِرف التي كان "ديدرو" المؤسس الرئيس لها، وقد شارك فيها جميع الفلاسفة المعروفين في فرنسا خلال القرن الثامن عشر.

وحتى نبدأ بمقارنة المفاهيم الأساسية لهاتين الموسوعتين، وجب توضيح الاختلافات بينهما، وذلك